حـــازم ... !

للأستاذ عدلى طاهر نور

— ١ —

— حنان !

— ماذا ياحازم ؟

كانت حنان مستلقيـة على العشب تنظر إلى السماء بعينين حالمتين وقد شبكت يديها تحت رأسها لتتقى صلابة الأرض ، وسقط شعرها الفاحم متدرجاً على ذراعيها الناصعتين والخضرة الناضرة فأكسب تآلف هذه الألوان وجهها جمالا بارعاً ، وكان حازم مضطجعاً على جانبه بالقرب منها يعبث بالعشب وعلى شفتيه ابتسامة الذكرى .

مالت حنان برأسها قليلا لترد على نداء حازم بقولها : « ماذا يا حازم ؟ » فقال:

— هل تذكرين يوم تعارفنا ، حينما قدمت إليك فظللت ممسكا بيدك وقد بهرتنى صورتك وأذهلنى جمالك فلم يردنى إلى صوابى غير تخضب وجهك وتهكم الأصدقاء ؟ يا لهـا من لحظة لا أنساها ! فقد تاه الطرف فى صفاء تقاسيمك ، لا يستقر على جمال حتى يجذبه جمال آخر . وهل تذكرين ذلك اليوم ، حينما ابتعدنا عن الأصحاب فوق المقعد تحت الصفصاف ؟ كم بقينا طويلا فى صمت عميق ، هذا الصمت الذى يخدر الحواس وينشط المخيلة ولا يقطعه غير اختلاس النظر ليغذى الخيال . وتلك اللحظة ، هل تذكرينها يا حنان ؟ تلك اللحظة التى تقابلت فيها عيناناً فحاول كل منا أن يحول نظره ولكنه ما استطاع . فقد شخص بصرانا وتخضب وجهانا من المفاجأة ، ثم ابتسمنا فكانت الابتسامة إذناً بالكلام .

أغمضت حنان عينيها تستعيد الماضى وقد أشرق وجهها بنشوة الذكرى ، وامتلأ صدرها بلذة الرؤية . وصمت حازم وعاد يعبث بالعشب ويستنشق النسيم الملىء بالذكريات ، وهاج قلبه بالحب فنطق يقول :

— لا شك يا حنان أن حبى لم يخف عليك . ف ما فى ينبض بالعاطفة . ولكن هل تعلمين قدره ؟ إن تأسر الرجل بجمال خلقها أو حسن خلقها ؛ وأنت يا قد جمعت الجمال كله . ويزيد فى ولهى ما بك من سمو ساذج ي من القلب . فلست كمن شاهدت من النساء يتصنعن السم نظرة أو لفتة أو مشية ، فلا يعدو الأمر الظاهر . إن ما بك فضائل يا حنان يسحر لبى ويملك قلبى .

فاعتدلت حنان وعيناها تفيضان حباً ، وقالت وص يصوّحه الوجد :

— وأنت يا حازم . أما تعرف أنك سيد قلبى ؟ لست أ فصاحتك فأصف لك حبى ؛ ولكنى أشعر ... أشعر أنك شىء فى حياتى ؛ فطيفك يلازمنى فى يقظتى وأحلامى . و لأمرض لبعدك وأسعد بقربك . آه يا حازم إن حبى لك لعظ

— إن روحينا ياحنان قد امتزجتا ؛ فما من قوة تفرق بي أنا سعيد يا حنان . وما أستطيع أن أكتم سعادتى فانا أرد لكل ما حولى ، للشجر والطيور ، للقمر والنجوم . وأوحى إلى كل من يصادفنى فتنبسط الأسارير وتبتهج الأنفس . ما أ الحياة إذا ملأها الحب والسعادة معاً ... وسكت حازم فجأة بدت فى عينى حنان سحابة حزن انحدرت دمعاً . ولم يلبث أن صا

— حنان أنت تبكين ؟ بالله أما تفصحين ! فكم لمحت الشجن يكسر طرفك ويؤلم قلبى . ولكن غمرة السعادة جا فما كان ألى يدوم أطول من خفقة ، والآن أنت تبكين فما أستط صبراً . بالله يا حنان ما ذا بك ؟ حدثينى .

لم تستطع حنان أن تغالب الدمع فقامت تجرى وارتمت مقعد قريب تذرف العبرات . وأسرع حازم وراءها وجلس بجا يجفف دمعها ويخفف تأثرها : أنا آسف يا عزيزتى ؛ فما أردت أثير ذكرى أو أنكأ جرحاً . وإنما ظننت أن الافضاء بذا الصدر يرفع عن النفس الحمل . هيا يا حنان . انسى كل شىء و تفكرى فى غير حبنا وسعادتنا .

فأجابت حنان على الفور: « لا ياحازم ، يجب أن تعلم . فأنا ولكن البكاء غلبها فلم تنبس بغير شهقة . فمدت يدها إلى حقيبة وظلت تبحث فيها وهى لا تستطيع الكلام ولا تنقطع عن البك

حتى أخرجت (دبلة) ذهبية وضمتها فى بنصرها الأيسر . وكان حازم يتبعها بنظره مشدوهاً ، لا يعى ما تفعل ؛ ولكنه سرعان ما صرخ فزعاً : « أنت ياحنان . أنت ! » فأجابت بحزن عميق : « نعم ياحازم . تلك مشيئة القدر » وساد سكون طويل أثقله صمت الطيور كأنها أشفقت من التغريد على قلبين يتعذبان . ساد السكون فبدا صوت حازم المتصاعد ناجماً يرسل القشعريرة إلى البدن .

لمَ يا حنان ؟ لمَ تركتينى أتدله فى حبك ؟ لم هذه القسوة ؟ ثم أمسك بيدها متوسلا: « قولى إنك تمزحين . قولى إنك لم تتزوجى. قولى لى أى شىء غير ذلك » . ولكن أصابعه لمست الدبلة فجذب يده بشدة وابتعد عنها قليلا وهو ينظر إليها نظرة الحزن والغضب والحب الخائب .

واندفعت حنان تقول : « أنا شقية يا حازم . فلا تقس علىّ ولا تزد فى شقائى . أواه ! لو علمت كم قاسيت ، وصبرت حتى مل الصبر . أرهف الله حساسيتى إلى حد المرض فلم أنعم فى دنياى بسعادة . وكان شغفى بالمطالعة منذ فجر شبابى طريقاً إلى الشقاء ، فقد غذيت عقلى وقلبى بأعلى المثل وأجل الأحلام . فكانت صدمة الواقع قاسية وتبدد أوهامى مؤلماً. وغشينى هم من الناس فأخلدت إلى العزلة وانطويت على نفسى حتى أذوانى السقم وشفنى الهزال . وأزعج أمرى والدىّ ففزعا إلى الأطباء يرجوان لى علاجاً ، ولكن هيهات أن ينجع دواء الجسد فى شفاء النفس ، فقررا آخر الأمر أن يزوجانى . واستقبلت حياتى الجديدة تهدهدنى الآمال وتغمرنى الأمانى ؛ فقد كان قلبى يهفو إلى دار حانية يرعاها زوج حنون ويهجها أطفال أعزاء ؛ ولكن جدى العاثر كان يلاحقنى فكنت كالظمآى فى صحراء ، أنشد السعادة وهى سراب .

أحببت زوجى لطيبة أخلاقه ، ولكنه كان يقتل حبى باعراضه ؛ فقد طغى عشقه لعمله على كل عاطفة . وما كان يعنى بى أكثر من عناية الثرى بتحفة تجمل بهو منزله . والله أعلم كم حاولت أن أوجد لنفسى فى حياته أثراً ؛ ولكنه سامحه الله كان يعتقد أن سعادة المرأة أن تنعم بفاخر الزينة وأن تفوز بحرية التصرف . فنسى أن الزواج ألفة يوحى بها الحب المتبادل ، وأن العشرة الخالصة لا تتحقق بغير صيانة هذا الحب . نسى أن الزواج شرّع للصحبة المشتركة والتعاون الوثيق فتصفو الروح وترق الحياة . نسى أن ملاطفة المرأة والتودد إليها ليس مقدمة للزواج فحسب ، بل عاملا حيوياً فى علاقة الزوجين . آه لو حاول الرجل أن يخبر زوجه فيحقق لها أحلام الصبا وسعادة الشباب ، إذن لأحبته العمر ولظل سيدها الأوحد وسلطان قلبها المطلق ، ولكن الرجل وا أسفاه لا يحاول فهم المرأة وإدراك حقيقة نفسيتها ، ثم ينعتها بالبرود والأعراض ، ولا يلبث الزواج أن يصبح واجباً يؤدى . وهكذا عشت مع زوجى لا أحبه ولا أستطيع أن أكرهه . عشت معه بقلب يغص بالخيبة والحسرة .

ولم يقف عذابى عند هذا ، ولم يغفل القدر عنى . ففقدت والدىّ واحداً بعد آخر . ففقدت معهما قلبين كانا يعطفان علىّ ويخففان عنى قسوة الحياة ، وشعرت باليتم يهصر قلبى والوحشة تفجع نفسى . ثم كانت صديقاتى ؛ فقد كن يروين لى بعضاً من حوادث لهن ليخففن عنى . فكان شعورى بهذا الفضاء الذى أحدثته النوائب فى نفسى يشتد وينتشر . ولم ألبث أن ضعفت يا حازم تحت إلحاح صاحباتى ، فانطلقت معهن ذلك اليوم إلى حيث قابلتك . فكنتُ أنا الزهرة الذاوية ، وكنتَ أنت القطر الباعث . وساقنى القدر فى طريق الحب فلم أفكر لحظة ، ولم أتب إلى نفسى إلا بعد أن أحببتك . ولم أقو على الإفضاء لك بزواجى ، بتعاستى ياحازم .

وغلبها البكاء فانقطعت عن الكلام . وصاح حازم وهو يكفكف دمعه : « مسكينة يا حنان ! »

— ٢ —

مضى كل منهما فى سبيله مكسور الفؤاد . وعادت حنان إلى عزلتها وقد حرك اليأس رماد قلبها وأهاج لهيب شجنها . وكانت تعمد ، حينما يشتد بها ألم الشوق إلى الذكريات تلتمس منها عزاء ضن به عليها العالم الخارجى ، فتصبح كصريع المخدر تقاسى بعد لذة قصيرة وسعادة واهية أشد الآلام . وكان أكثر ما يعذبها شعورها بما يكابد حازم من اضطراب نفسى بعد هذا الحادث ، ويأسها من حل لموقفها البائس . فما كانت تستطيع أن تهجر زوجها لطيبة قلبه ، وقد همت بذلك خضوعاً لحبها الجارف لولا أن خشيت لوم حازم فانتظرت أن يخطو هو الخطوة الأولى واستسلمت فى انتظارها لحزن داهم وعزلة شديدة .

وعاد حازم وهو لا يفكر فى غير اعتراف حنان ، ورأسه يدق بالحقيقة القاسية ، وقلبه يخفق بحبه الشديد . وكان كل عصب فيه ينبض بقوة كأنه يصيح : إنها متزوجة ! ومضت أيام قبل أن يسكن هذيانه ويروق ذهنه . ثم لم يلبث أن اختلى بنفسه فى محرابه وهو يرتعد لجاجة قلبه لعقله . كم كان يود أن يفر فى هذه الساعة الحاسمة ، ولكنه كان يشعر بقوة خفية تدفعه إلى مكتبه

أخذ يراجع حديث حنان وهو يقطع الغرفة بخطوات واسعة وقد وضع يديه خلف ظهره وطأطأ رأسه لشدة التفكير . كان عقله الرشيد وتربيته القويمة قد حصنا نفسه ؛ ولكن قلبه كان قويا بالحب ملتهبا بالشوق . فكان الصراع بين ضميره وعواطفه عنيفا . كان ضميره يثور تارة وقلبه يطغى أخرى ، ونفسه بين هاتين القوتين حائرة معذبة .

كان يحدث نفسه قائلا : « ماذا دهاك يا حازم ؟ كيف تخلد إلى هذا الوسواس فيحرضك على الشر ، وتثابر على هذا الحب فتسلب بريئا امرأته ؟ كيف تقدم على هـــذا الأمر فتنقلب شيطانا يحث على المعصية ويهدم بيتا هادئا ؟ كيف تحل رباطا مقدسا وتقطع صلة طاهرة فتحقر نفسك وتفقد عزتك ؟ ثب إلى رشدك وعد إلى جهادك . فحذار حذار أن تستسلم لعواطفك . فالعاطفة المطلقة كالسيل ، أوله انقضاض يجرف ويقتلع ، وآخره نضوب وقحط . وقد وهبنا الله العقل لنقيمه سدا يحبس تلك القوة الطاغية وينظم تصريفها . إن حنان ليست لك يا حازم ... »

ووقف حازم فجأة وضرب كفه بقبضته صائحا : « يجب أن تناساها » . وتابع سيره وهو يكرر تلك العبارة بتؤدة ويقطعها ليوحي إلى نفسه معناها ويملي عليها إرادته . ولكن أنى لعقله أن يثبت ولم يكن أمر حبه مشكلة دارجة ؟ فهو لم يكن يعرف الحب من قبل . أما وقد نهله فقد أصبح الأمر مشكلة حياته . فكان قلبه المضطرم يصهر عزيمته ويشوش منطقه ، وحبه المتدفق يخنق ضميره ويذهب بصوته فلا تلبث نفسه أن تصيح :

« تباً لك ياحازم! مادمت عبدا لعقلك فقد تحرم الحياة ومتعها وتعرض عن الحب ، فيطغى العقل وتنضب النفس ويفسد الذوق وتنقطع صلتك بالحياة . لا يا حازم . لا تفعل ذلك ! إن حنان لك ، فالأقدار لم تجمعكما عبثا . إنه نداء القلب فأنت تلبيه ، وماء الحياة فأنت ترشف منه . وكيف يقبل عقلك أن يعيش زوجان بلاحب ويأتلف قلبان بلا تمازج ؟ إن حنان لك يا حازم . ولك وحدك .

كان حازم يجد في حديث نفسه لذة عظيمة ، ولكنها لذة يكدرها صوت الضمير الذي يأبى أن يخضع فيعود ويرتفع من الأعماق : « حذار حذار أن تسلك هـذا الطريق » . فكانت نفسه كرمال الشاطىء بين كر الأمواج وفرها لا تهدأ ولا تستقر . كان حبه قويا ، ولكن عقله كان يقظا وضميره حيا . ولهذا كان حزينا برما . فهو لا يستطيع أن يعود إلى حنان ، ولا أن يبتعد عنها وبينما هو في عذاب اليأس والتردد ، إذ فاجأ نفسه بهذه الهمسة : « مسكينة يا حنان ! » . وكان يكرر تلك العبارة ولا يفطن بادىء الأمر إلى معناها . ولكن سرعان ما قفز من كرسيه حيث أقعده الأعياء ، وهو يهتف : « نعم ! مسكينة يا حنان » ألم ينطق بتلك العبارة من قبل عند ما قصت حنان عليه قصتها المحزنة ؟ ألم تذرف حنان وقتئذ دموع الشقاء بين يديه فأرمضت قلبه ؟ إذن كيف يتركها تذبل وتتعذب؟ كيف يقتلها بالهجر وهو لم يقس قط؟ كيف لا يعطف عليها ويؤنس وحدتها ؟ إن في حبه لها صداقة ، والصداقة عاطفة تجمع بين القلب والعقل . أليس من واجب الصديق أن يعين صديقه ؟

ملأت الشفقة نفس حازم بغتة . وقد أثارها الحب ليستعين بها على العقل ؛ فما كانت هنا غير قناع لبسه الحب فجأة فشل العقل وأسكت الضمير . والحب قد يأتي بالمعجزات .

وخف حازم إلى حنان يتمتعان بسعادتهما السابقة فيركبان سيارته ويتنقلان بين الرياض ، فتستلقي حنان على الأعشاب الغضة تنظر إلى السماء بعينين حالمتين ، ويضطجع حازم على جانبه بالقرب منها ، تعبث يداه بالأزهار ويشع وجهه بالغبطة .

— ٣ —

وحدث ذات يوم أن قام حازم وحنان برحلة من رحلاتهما العزيزة إلى ضواحي القاهرة ، ودهمهما الليل في طريق العودة . وكان الليل مقمرا ، فأغراهما جمال الطبيعة بالبقاء حيث كانا على شاطىء النيل .

كان القمر يسيل رقة تلين الأبدان ، وكانت أشعته تهبط على المياه كقبلة العاشق على كتف حبيبته فتسري فيها رعشة لذيذة وتهز لها اهتزازاً لطيفا . وكان هـذا الاختلاج يسحر الناظر ويهدهد عقله فيغوص في هذا المزيج من الأشعة والماء .

وكان السكون رائعا يقطعه بل يزيده صفير الصرصور المتتابع فتؤثر وحدة الصوت المتواصلة في المرء ، فتصيبه غشية هادئة ترفعه إلى عالم الأحلام ، ويزيد نشوته عطر ثقيل من الزهور المختلفة ينتشر الى جسمه فيثقل تفكيره وأطرافه .

كانت الطبيعة تنشد نشيدها الأبدي في معبدها الساجي ، وقد أطلقت بخورها العبق ، ولبست حللها الفاخرة ، فيتصاعد الى السماء تآلف من الأصوات والعطور والألوان ، ينعقد سحبا رقيقة لازوردية رنانة تخلع على الأرض غموضا مقدسا ، يحير البشر فيعتريهم الخشوع ويغشاهم الوجوم .

وكانت حنـان مستلقية على العشب ، وقد أكسبها القمر شحوبا عاجيا ليس فى الانسان ، وجمالا مبهما ليس على الأرض ولا فى السماء ، جمالا يتصوره الشاعر فى مخيلته ويعبده فى خلوته كلما تردد عليه وتراءى له . وكان حازم مضطجعا الى جانبها بقلب الطرف فى جمالها وقد سابته الفتنة كل إرادة ، وأثار الوجد كل حواسه . وتحولت حنان بنظرها إليه فتلاقت عيناهما وشخص بصراهما ، وكان ينبعث منهما بريق ساطع متدفق لم يلبث أن هدأ ورق . وفى همس يقطعه الهيام امتزج اسماهما : حازم ! حنان ! والتقت شفتاهما فى قبلة حارة طويلة . كانت عواطفهما كحمم البركان تصعد من الأعماق متراخية ملتهبة ثم تفيض فتتحدر بشدة كاسحة . وفى ذلك الوقت اختفى القمر وراء سحابة كثيفة كبيرة . وفى تلك اللحظة التى ينسى الانسان كل شىء غير أن الطبيعة حبته بقوة عاطفية جامحة ، فى تلك اللحظة التى تطغى فيها حرارة القلب على قدرة العقل ، فى تلك اللحظة لبيا نداء الجسد . إنهما من جسد ، والجسد ضعيف والهوى غلاب ، فكيف يعدمان الشهوة ؟ كان عقلها فى يقظتهما راجحا ؛ ولكن الطبيعة خدرت ذلك الحارس ، فتنفست الشهوة المكبوتة ، وكانت تعمل فيهما خفية والعقل يحجبها ، فجهلاها حتى تمت واشتدت فتحركت وغلبت

وظهر القمر ومر أحد المسس يقرع بنعليه الطريق ، فاستيقظ العاشقان من حلمهما اللذيذ وتبينا أمرهما مضطربين : وما أقسى أن ينقلب المرء من حال إلى آخر بلا انتقال . فاستولى عليهما الوجوم والحيرة ، وفرق الخجل بينهما لحظة طويلة قطعها حازم بعد جهد بقوله :

— إن الليل قد تقدم ، فدعينى أصحبك إلى منزلك .

ولم تجب حنان بغير نظرة مبهمة ، وقامت تخطو وئيدا إلى السيارة ، وأدار حازم المحرك وسأل :

— أين تسكنين ؟

ولم يكن حازم يعرف حتى ذلك الوقت مسكن حنان إذ كانت بعد كل لقاء تفضل أن ترجع وحدها . وأجابت حنان :

— فى الدقى ، سأبين لك الطريق .

— ٤ —

واندفعت السيارة إلى منزل حنان . فكان حازم يشعر كلما توغل فى السير أن الطريق مألوف . ولكن هذا الشعور لم يتعد طبقات نفسه الأولى فلم يلتفت إليه تماما ، حتى أشارت حنان بالوقوف . وبينما هو يودعها وقع نظره على منزلها فثبتت عيناه فى محجرها وتملكه فزع شديد ؛ فصاح بصوت قلق يكاد يسمع :

— أنت ... تسكنين هنا ؟

فأجابت حنان وقد راعها حاله :

نعم ! ولكن ما ذا بك ؟ هل رأيت شبحا ؟

ولم يجب حازم وانطلق إلى مسكنه بأقصى سرعة . كان همه الأول أن يبتعد عن هذا المنزل ولكن صورته باتت تلازمه وتزيد فى عذابه . فكان يهمس : رحماك يا إلهى . فما أقسى العقاب !

كان منزل صديقه أحمد ، فكانت حنان إذاً زوج صديقه ... وكان أحمد لا يجتمع بأصدقائه كثيرا لشغفه بالعلم وانقطاعه له ، ولكنهم كانوا يكنون له الحب والاحترام لدماثة خلقه وكرم طباعه . وهذا هو حازم ، يالقسوة القدر ، يكتشف أنه كان يخون صديقه فينقض عهد الصداقة . كأن يخونه فى عرضه . والعرض كيف يلأم صدعه ... آه . لو استمع إلى صوت عقله !

كان حازم يفكر فى ذلك فيحز الألم فى نفسه . كانت الصدمة عنيفة أودت بكل عاطفة أثارها الحب . فما وجد لفعله عذرا ولا لضميره ردا . وساد ضميره وقام يؤنبه بعنف ويلاحقه بشدة ، ونفسه قد خلت من كل توازن يقيه شر الاختلال . كان صوت الضمير يتبعه وصورة صديقه لا تفارقه ؛ فلم يستطع البقاء فى مكانه وخرج يهيم على وجهه فى الطرقات . ولكن الصوت كان يطارده فيعدو المسكين هربا منه ، فيملأ أذنيه ، فيسرع فى الجرى حتى يصرعه التعب ، فلا يلبث طويلا حتى يبدو له وجه صديقه يشخص إليه فى حزن وأسف ، فيعود إلى الجرى ليسقط مرة بعد مرة حتى خر على الأرض مغشيا عليه .

وأشرقت الشمس وقامت الطيور تعلن قدوم الصباح ودبت الحياة فى الكون ، ووقف الشرطى يتأمل جسما طريحا وانحنى يهزه ليتبين أمره ؛ فانتفض النائم وجلس لحظة ورأسه بين يديه ، ثم نظر إلى الجندى المستفهم نظرة بلهاء ولم يلبث أن نهض مسرعا وهو يهمهم بكلام لا يفهم .

إنه كان حازما الرقيق . صرعته الصدمة فاختل عقله ، وأصبح يكفر عن خطيئته . كان ملكا فى وحدته فسولت له النفس أن يهبط إلى الأرض ؛ فتدهور من العلياء وعاد آدميا تسوده الغرائز الشهوانية والرغبات الدنيئة ، واقترف الخطيئة فاستحق العقاب ، والسماء لا تغفر لملك هوى .

عبد الله عبد القادر نور